المرأة صانعة الرجال

المقدمة

((قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ;وَيَسّرْ لي أَمْري; َواحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ;يَفْقَهُوا قَوْلِي)).

الخطاب أداة توصيل تتولى نقل المضامين الفكرية، والسياسية، والمشاعرية من المعطي (الخطيب) إلى المتلقي (المخاطَب)، وما من حركة سياسية، أو ثورة جماهيرية، أو دولة قوية إلا ولها خطيب يتولى طرح أهدافها، وتحديد آليات تحقيقها ويحذر من الأخطار المحدقة بها.
لحظة الخطاب هي لحظة الكلام التي تمنح المعطي قوة التأثير في المتلقي، ومَلَكة النفوذ إلى عمقه، ويشعر معها أنه بقدر ما ينطلق من عمقه كخطيب سينفذ إلى عمق المتلقي كمخاطَب، ولا يتأتّى له ذلك ما لم يتمتع بوعي مركب، وعي المبادئ التي يدعو لها.. الواقع الذي يحيط بشعبه.. المخاطر المحدقة به.. الطموحات التي يتطلع إلى تحقيقها، والبرامج التي تتكفل بإحداث النقلة النوعية المنشودة، وكذلك وعي البنيوية الخطابية التي تمتزج فيها مفردات اللغة بدقة المفاهيم، وصدق المشاعر باتجاه التقارب الجادّ لأحاسيس الناس.
العطاء والأخذ كمادة للتداول، والمعطي والمتلقي كأطراف للتداول، لا يُشكّل ذلك بقرار، أي حين يجالس الإنسان مَن هو أكثر منه ثقافة وأسبق تربية، لاشك أنه أمام واقع التلقي، إذ لا يوجد مُعطٍ مطلق ودائم ومُتلقٍ مطلق ودائم؛ لأننا لسنا معصومين أو ملائكة، إنما هي نسبية تحكم الطرفين..

هذه الخطب أفرزتها معاناة مستوحاة من عذابات إنسان العراق والعالم، وصاغتها طموحات الإنسان ذاته، وحددت اتجاهها إرادة الإنسان المعطي؛ لذا كانت مرتجلة دونما تحضير مسبق أو زخرفة متكلفة تظهر فيها الصنعة الكتابية وهذا هو ديدن الدكتور ابراهيم الجعفري في كل خطبه.

مؤسسة الكتاب الثقافية

المرأة صانعة الرجال

كلمة الدكتور إبراهيم الجعفري في مجلس النواب بمناسبة يوم المرأة 8-3-2011

بسم الله الرحمن الرحيم
((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)).

كان المسرح، قصر فرعون، وكانت بطلة المسرح آسية بنت مزاحم، وكانت أطراف النزاع قصر يستهوي الضعاف بكل ما فيه من عناصر الجذب من الثروة والمال والأبهة، وكان سيف فرعون يمثل الصف الآخر انطلقت هذه المرأة الصالحة من داخل قصر فرعون؛ حتى تكون مثلاً أعلى للنساء والرجال، وليس لزمنها فقط إنما لتكون على مر العصور.

حين نتحدث عن المرأة نتحدث عن نصف المجتمع سكانياً وديمغرافياً، ونتحدث عن النصف الصانع للنصف الثاني، وهو الرجال، المرأة صانعة رجال، وهي التي تدفع بأبنائها وإخوانها وبزوجها وكل رجل إلى سوح الوغى، وميادين المواجهة، وتدفع بهم إلى ميادين الفكر، تودعهم ما أتاها الله من قيم، وقد سُمِّيت الأم أماً؛ لأنها الأصل، ومنه أننا نقول: إنها أمهات المطالب، وأمهات المراجع، وأمهات الكتب.

النظرة التقليدية التي تدورت في العصور إلى كل أمم العالم لم تكن قد انطلقت من الفكر إنما انطلقت من العادات والتقاليد البائسة التي فرّقت بين الذكر والأنثى، القرآن الكريم يحدثنا عن المرأة البطلة، وهي آسيا بنت مزاحم، وتحدثنا كل كتب السماء عن المرأة القائدة التي تدير دولة، وهي بلقيس ملكة سبأ، وتحدثنا عن المرأة الشابة الواثقة بنفسها التي تتحدث مع أبيها النبي:
((يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)).

ويأخذ النبي بنصيحة ابنته، وتحدثنا عن المرأة التي لا تبارح النضال من مكان إلى مكان وهي (سبيعة الأسلمية)، حتى نزلت بحقها آية، ويقدم لنا تاريخنا (فاطمة الزهراء) سيدة نساء العالمين، أماً للحسنين، وبنتاً لرسول الله، وزوجة لعلي بن أبي طالب، وقائدة ومحدثة، أي عظمة كهذه العظمة؛ حتى يقول بحقها رسول الله: صلى الله عليه وآله وسلم:
(فاطمة الزهراء أم أبيها).

هذا هو تاريخنا على مستوى التنظير في القرآن الكريم والسيرة المطهرة، لا نكتفي أن نتغنى بتاريخنا، وما عبق من نماذج نسائية، إنما علينا أن ندوّر هذا التراث المعرفي والقيمي والعملي الذي ملأ التاريخ إلى حاضر ينبض بالحياة.

مشكلتنا مع المرأة في مجتمعاتنا ليست مشكلة فكر، إنما مشكلة عادات وتقاليد بائسة وهذه لا تصمد أمام العقل الخلاق والقيم الحقة.. في الدول الغربية تعاني المرأة من فكر يريد أن يختزلها، وينحّيها، ويهمّشها من الحياة فنشأت البطرياركية والذكورية في مجتمعاتهم، وحتى الأمس القريب كانت المرأة لا تستطيع وإلى اليوم في بعض مجتمعات الغرب لا تقوى أن تضع اسم لقبها إلى جانب زوجها، ما إن تقرن اسمها بزوج معين إلا وتهجر عائلتها، وتستأنف بلقب جديد.

لا ينبغي أن نشتبه حتى أننا نستجدي دور المرأة المعاصر الجديد الذي نتطلع له من هذه الدولة أو تلك الدولة، فلسنا في قصور فكري وقصور مفاهيمي، لابد أنكم سمعتم بالسيدة (أغاثا كريستي)، هذه المرأة كتبت أروع الروايت، وأخفت اسمها، وكانت تكتب باسم رجل؛ لأنه لا يُسمَح لها أن تكتب.

إلى الأمس القريب ثلاث من الأخوات في بريطانيا يكتبن أروع الروايات بأسماء رجال (ان ـ أميلي ـ جارلوت)، بطرياركية ذكورية، أما نحن فصوت المرأة دوّى في أثير التاريخ، وظل ذلك الصوت المدوّي يتجاوز حواجز الزمن.

نقرأ عنهن في كل مقطع من مقاطع الزمن، وقفن، وناضلن، وكتبن شعراً، هذه الخنساء التي عاشت قبل الإسلام وبعده عانقت الفكر، وانطلقت مؤمنة لا تتردد أبداً، قدمت أربعة من أولادها في القادسية، وخطبت بهم، وقدمتهم للشهادة، واستقبلتهم شهداء، وناضلت من أجل إعلاء صوت المرأة.

المرأة اليوم في التجربة المعاصرة بعد سقوط نظام صدام في 2003 أقحمت بالعملية السياسية بنسبة لا تقل عن30% ونحن اليوم أمام امرأة برلمانية جديدة ليست المرأة المقحمة، المرأة المقتحمة بكفاءتها الذاتية التي انطلقت من عقلها وإرادتها، ودخلت الوزارة في 2005 سبع من السيدات، وهن اليوم يدخلن في البرلمان ومجالس المحافظات، ويتحدثن على منابر الإعلام، وصنعن الشهداء.

عندما يشاء القدر أن تقدم أي من هذه النساء شهيداً، لا أقول: لا توجد نساء من غير تاريخنا، ومن غير تراثنا وجغرافيتنا لم يطرزن الفكر، أو يطرزن سوح الكفاح، لا أنكر عليهن، تذكر (هلن كلر)، على مدى عمر امتدَ ست وثمانين سنة كانت بصيرة، وكانت صماء، لكنها كانت تتحدث خطيبة، وتنتقل من مكان إلى مكان آخر، وحصلت أربع شهادات دكتوراه، وأتذكر جيداً السيدة (هاريت بيتشر ستاو) في عام 1852 قبل الحرب الأهلية في أميركا التي وحّدت بين الشمال والجنوب

الأميركيين، كتبت قصة (كوخ العم توم) ساهمت في وحدة أميركا بعدما تمزقت، وقدمت 600 ألف ضحية.

النساء اليوم، يدخلن في كل الميادين بعقل مستنير وقلب عامر، ولا نحتاج عندما نتحدث عن المرأة كأنما نتحدث عن مخلوق قادم من أعماق البحار، إنما نتحدث عن المرأة صانعة رجال وصانعة الأجيال.

كل واحد منكم نتاج امرأة تلتصقون بها في السنوات السبع الأولى من حياتكم؛ لتأخذوا منها القيم والمبادئ والأفكار؛ فتحياتي لكل امرأة عراقية من شمال العراق إلى جنوبه، ولكل شهيدة عراقية.. تلك النساء اللاتي طرزن سجل الشهداء بأنقى الدماء من الشهداء، واللواتي صنعن الشهداء.

الشهيد منتِجٌ ومنتَجُ للنساء، ومنتج بفكره وكتبه وكل شيء وهو منتج لامرأة، امرأة صنعت شهيداً، ودفعته إلى ميادين الوغى حتى يتعلق على عود المشنقة من دون أن يتنازل عن مبادئه وقيمه، وزينب العصرالمعاصرة، بنت الهدى، عالمة، ومفكرة، وشاعرة، وخطيبة، وشهيدة، واليوم هذا المنظر الجميل الذي توشح به برلمانكم الموسوم بمجموعة من السيدات كن يقفن هنا.

هذه رسالة إلى كل بناتنا وأخواتنا في كل مكان.. إلى اللواتي لم يصلن بعد إلى مرحلة البرلمان في سوح الموت في تونس وفي ليبيا وفي مصر واللاتي دخلن هناك، هذه نتاج العملية الجديدة الديمقرطية في العراق التي ساهمت بها جماهير شعبنا.
تحية لكل امرأة في كل مكان، وتحية للشهداء وأمهات الشهداء والسجناء، وتحية لكم ولكنَّ جميعاً.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.